السندوتش و المائدة

للأستاذ عباس محمود العقاد

أدب السندوتش هو أدب الفاقة والعجلة ، وأدب المائدة هو أدب اليسار والوقار ، كما سماهما الكاتب البليغ الأستاذ الزيات وأصاب فى التسمية . لأنها تسمية وتوصيف وتعليل فى وقت واحد

وقد ختم الأستاذ مقاله سائلا : « ليت شعرى إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر - أدباء الكهول - الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع فى مصر ؟ أيذهبون وبطئان ما يعوّضون على رأى الأستاذ أحمد أمين ، أم يذهبون وسرعان ما يُخلَفون على رأى الأستاذ العقاد ؟ »

وفى جواب هذا السؤال أيضاً لست من المتشائمين ، لأن الجواب بعضه من سر المستقبل ، وبعضه من حقائق الماضى ؛ فان وقفنا من المستقبل بين الشك والرجاء فوقفنا من الماضى أدنى إلى رجاء المتفائل . وأقصى عن يأس المتشائم ، بل لعله موقف لا يحمل فى أطوائه غير يقين الرجاء

قبل ربع قرن من الزمان كان أناس غير قليلين يسألون كما يسأل الأستاذ الزيات اليوم : ترى من يرفع لواء الأدب بعد أعلامه البارزين فى هذه الآونة ؟ ترى هل ينطوى اللواء بعدهم أو تهيء له الأيام أكفاً تنشره كما نشروه وتعزه كما أعزوه ؟

ولم يكن اسم واحد من الأسماء الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الأستاذ الزيات معروفاً تلك المعرفة التى تغنى فى اجابة السؤال ؛ وربما كانوا مجهولين كل الجهل فى غير مجال الاصحاب أو مجال المتطلعين المتسمعين إلى أبعد الأصداء ؛ فكان الجواب الغالب على الألسنة أن المستقبل مقفر مدبر ، وأن من مات فات وليس له لاحق بين ناشئة الجيل

فاذا سألنا فى مفرق الجيلين مثل ذلك السؤال ورأينا البوادر تملى علينا مثل ذلك من الجواب ، فليس من اللازم أن تصدق البوادر ، وأن تنقضى خمس وعشرون سنة أخرى دون أن يخلف السابقين عوض من اللاحقين ، وإن خفى نجمهم اليوم أو تراءى على الأفق تراثياً يتشابه فيه النجم والسديم

وإننا لنذكر اليوم الستة أو السبعة القائمين بأمانة الأدب وننسى الستين أو السبعين الذين كانوا يزلون كما يزل بعض الناشئين فى أيامنا ، ويتبلغون بالقليل من زاد الاطلاع كما يتبلغ أدباء السندوتش بيننا : نسينا أولئك الستين أو السبعين لأن الزمان قد نسيهم وعفى على أسمائهم وآثارهم ، ولكنهم كانوا فى أيامهم يحجبون الأفق ويشبّهون الشخوص على الأنظار ويبعثون اليأس ويثبطون الرجاء . فليس من البعيد أن يكون لهم نظراء يلبسون الأمر علينا ، وأن يكون للستة أو السبعة نظراء ينقشع عنهم الغبار بعد عشرة أو عشرتين من السنين ، وإن جاز أن يخيب الظن كما يخيب بعض الظنون

وفى العالم كله نوازع شتى تنزع بالناس الآن إلى الأدب الرخيص أو أدب السندوتش أو أدب الفاقة والعجلة ، وقلما تختلف البلاد فى هذه النوازع على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية التى تساس بها الشعوب فى العصر الحديث

فنى البلاد الديمقراطية يكثر القارئون بين سواد الشعب ويتوخى الناشرون الرواج فيؤثرون ما هو أشيع وأيسر على ما هو أندر وأنفع ؛ ويطغى الأدباء الهازلون على أصحاب الجد والأمانة ، فلا تتساوى الرغبة فى الأدب النفيس والرغبة فى الأدب الخسيس

وفى البلاد الفاشية يتحكم المستبدون فى أذواق الكتاب والشعراء فلا يذعن لعسفهم واستبدادهم إلا طائفة من المرتزقة المتزلفين الذين لا يقدرون على الأدب القيم ؛ ولو أتيح لهم أن يطرقوه ويتوسعوا فيه ، فهم أحرى أن يعجزوا عنه وهم مكبوحون مسوقون بالرهبة والاغراء

وفى البلاد الاشتراكية يعتقد الحكام أن الآداب هى لسان حال الطبقات ، وأن الأدب الذى يليق بهم هو أدب الطبقة السفلى ومن إليها من أشباه العامة والمسخرين . وحسبك من أدب يقوم على أذواق هؤلاء ، ويجرى مع هذه الأهواء

ولا ننس عصر الآلات وما يجرف به الناس من سرعة جائحة ونزوة جامحة . ولا ننس « الحرية الشخصية » وما سولته للصغار والأوشاب من غرور المساواة وتمرد المباهاة ، فقد

بدأت باعتبار الرجل نفسه ندا للسراة والوجهاء ولو كان فى الصعاليك والفقراء ، وانتهت باعتبار الرجل نفسه ندا للعلماء والأذكياء ولو كان من الجهلاء والأغبياء ، فضعف الخجل من التقصير ، وضعف الطموح إلى مساواة الأعلين . وأصبح العي الفهُ لا يدارى عيه ولا فهاهته لأنه صاحب « حق » فى العي والفهاهة ، وصاحب دعوة فى المساواة لا يعدم لها أنصارا بالألوف والملايين !

تلك النوازع فى بلاد العالم كله على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية خليقة أن تنصر أدب الفاقة والعجلة ، وتنحى على أدب اليسار والوقار . ولكننا نرجع إلى العصور الغابرة فلا يصادفنا عصر منها إلا كانت فيه نوازع كهذه النوازع فى نصرة الأدب المبذول وخذلان الأدب الكريم العزيز . وقريباً من عصرنا هذا كان تملق الأغنياء والخضوع للجامدين والولع بمحاكاة الأقدمين وضعف الثقة والعجز عن حرية التفكير والابداع نوازع أخرى لا تقل فى أثرها الوخيم عما أحصيناه من مساوىء عصرنا ، فلا نفاد فى عصور الزمن لبواعث الضعف ولا نفاد فيها لبواعث القوة ؛ وشأن العقول فى ذلك شأن الأبدان بين دواعى السقم ودواعى الصحة . لا ينفرد عصر بالأمراض كلها ولا ينفرد عصر بالعافية كلها ، ولا يزال الحال فى تعادل ونقص وتعويض ما دامت الحياة حية تعطى وتأخذ من دنياها بمقدار

على أننا لا نخادع أنفسنا ولا نستر الفوارق التى يتناوبين غيرنا . ففى انجلترا مثلا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم برتراند رسل وهو يتهد فى أعوص الموضوعات ؛ وفى فرنسا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم رومان رولان وبرجسون فى المثل العليا وما وراء الطبيعة ؛ وفى ألمانيا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم هوسرل وهيدجر فى معارض لا يعنى بها فيما أحسب عشرة من قرائنا المصريين ؛ وفى إيطاليا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم فريرو وجنتيلى وجروشى فى معضلات الاجتماع والتاريخ . وإنما مثلت بالفلسفة وحدها لأن موضوعاتها أعسر ، وقراءها أندر ، وعقول الباحثين فيها أكبر وأقدر ؛ وهى بعد عنوان لما وراءها من أدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور

أما فى مصر فأدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور إنما يقوم على كواهل أصحابه ولا يقوم على كواهل القراء ؛ وكل ما نملك من عزاء أن الجد والهزل فى هذا الباب يتساويان ، فليس بيننا كاتب هازل يعيش بهزله ، وليس بيننا كاتب جاد يعيش بجده ؛ وسبيل العزاء فى هذا أن الهزل والجد يعيشان على نمط واحد ، فلا يجور الهزل حتى يطمس معالم الجد ، وإن شاء أن يجور

كذلك يتعاقب أدباء الكهول وأدباء الشباب فى أوربا ، ولهم فى التعاقب معنى يتمثل فى تعاقب الأدوار وتلاحق الأفكار ، وتباين المدارس الذهنية على حسب الأحوال والأطوار

أما عندنا فحين ظهر بيننا من يعتون أنفسهم بمدرسة الشباب لم يكن معهم شىء جديد ولا دليل على الحداثة غير شهادة الميلاد ، وراحوا فى دعوتهم يميعون تميع الذى يربت على عطفيه ويتحبب إلى نفسه ويفرط فى تدليل سنه كأنه يتقدم فى سوق الرقيق لا فى ميدان الفكر وحلبة الصراع

بيد أننا قد جربنا الاختلاف بيننا وبين أوربا الحديثة فى خصال كثيرة صلح بعضها ولا تزال لها بقية على سنن الإصلاح ؛ فلنجرب ما بيننا وبينها من اختلاف فى هذه الخصلة خمساً وعشرين سنة أخرى ، ولا ننتظر نهايتها حتى نتفاءل ما وسعنا التفاؤل على أبواب المجهول ، وحسبنا منه فيما نحن فيه أن يتساوى الأمران فلا موجب للأمل ولا موجب للقنوط ، وكل ما كان بالأمس فهو وشيك فى غد أن يكون

أيذكر الأستاذ الزيات ما كانوا يعيبونه قبل خمس وعشرين سنة على كتاب الجيل الناشىء وشعرائه ونقاديه ؟ ؟ كانوا يجمعون العيوب كلها فى كلمة واحدة يسمونها «التفرنج» ويعنون بها الخروج على قواعد العربية . وكان يخيل إلى سامعيهم أنهم على صواب لا ريب فيه ؛ فهل نرى اليوم مصداق ذلك فى لغة الفريقين من الموسومين بالاعراب والموسومين بالتفرنج فى ذلك الحين ؟ أقرب الظن أن هؤلاء «المتفرنجين» من كهول اليوم أو فى العربية من أولئك المستعربين المتشددين ، فإن لم يكن ذلك شفيعاً للأمل فى غد ، فلعله أن يكون معيناً على الانتظار !

عباس محمود العقاد